حين قذفت اوروبا ما يقارب ٥٠ مليون انسان من سكانها الى العالم ليتناثروا على وجه الخارطة، متعلّقين بالسواحل الافريقية وجزر جنوب شرق آسيا واميركا اللاتينية والسواحل العربية.

٥٠ مليون انسان قذفهم انفجار العلاقات الاجتماعية ـ الاقتصادية التي تغيرت تغيّراً حاداً، ووحّدتهم فكرة من اغرب الافكار: «فكرة اعمار الأرض الخربة، وخلق قمر وشمس ونجوم وكائنات حيـة». أليس هذا هو السبب الذي يجعـل مفكـري الاستيطان يعتقدون بأنهم «اكتشفوا» القارة الفلانية و «الشعب» العلّاني؟

هذا «المعقول» الخاص جداً هو نفسه بالنسبة الى كل مواقع الاستيطان، وانْ اختلف السبب «العقلاني» من موقع الى آخر. انه، في النهاية، يستهدف الدفاع عن ماضٍ مندثر، ماضي فكرة سلب الآخر مبرّر الوجود.

في هذه النقطة، يمكن التحدث عن بداية الحلقة المفرغة، او هذا الحصار الذاتي الذي يقع فيه المستوطن وانصاره وراء البحار حين ينبسط العالم الى «معقول» غربي و «لامعقول» شرقي، او افريقي، او اميركي لاتيني.

اننا نلمح «لامعقوليتنا» بين سطور الباحثين والخبراء الغربيين حتى عند أشدهم تعاطفاً معنا، ونعني اولئك الذين ارتضوا فكرة «لامعقولية» الآخر ومجّدوها بوصفها امكانية حياة؛ ولكنهم لم يصلوا الى نسف هذه الثنائية بين معقول ولامعقول. انهم يتحدثون، في البداية، عن سمات مشرقية، خاصة، عن اسطورية ولاعلمية الشرق؛ ثم يتحدثون عن غرائبية شعوب العالم الثالث، عن حيويتها وعاطفيتها، مقارنة بأناس الشتاء الاوروبي، وهكذا.

ويبدو هذا التوصيف ملائماً لعدة قرون هي اليوم بين مخلّفات الماضي المعاصرة ايضاً.

ما الذي يحدث امكانية المراجعة والانقلاب اذاً، ويصيب المعقولية، الغربية باللامعقول؟

اذا تركنا جانباً ظلال مسرح اللامعقول على هذه الكلمة، تواجهنا قضية هامة، قضية اصابة هذا «المعقول، الذي خلّفه واقع القرن التاسع عشر بحجر الواقع نفسه ـ اي ان ما يحدث الانقلاب هو العناصر ذاتها التي جعلت من المعقول ما هو عليه.

لنقترب قليلاً من الحجر الفلسطيني الذي كسر زجاج غرف المعقول الغربي واقتحمها. انّ ما يدعونه، الآن، انتفاضة او ثورة فلسطينية في الصحافة الغربية يقرع بعنف بناء قائماً من «المعقوليات المنتـظمة» حسب تسلسل مثالي: مشروعية الحروب الصليبية، ومشروعية الاستيلاء على اراضٍ لا يسكنها بشر حتى وان كانوا احياء عليها، ومشروعية استيطان البيوريتان في اميركا والبوير في افريقيا، ثمّ مشروعية استيطان الفرنسيين والايطاليين في ليبيا والجزائر، وأخيراً مشروعية استيطان اليهود في فلسطين.

كل شيء مرتّب ومنظّم، بحيث لا تبدو ثغرة في هذه «المشروعيات» او «المعقوليات»، لأن المشروع يرادف المعقول الذي تندرج فيه، وتنظيم وفقه، حياة الغرب عموماً. وتزداد قيمة وثقل هذه «المشروعية» لدى الفكـر الاستيـطاني حين تتمّ ابـادة السكان الأصليين بسرعة، وبدون ضـجيج تحدثه بعض الضمائر الفردية.

لننسَ التبريرات اللاهوتية. فهي لم تختلف، جوهرياً، منذ فجر الحضارات؛ ولنتذكر، فقط، ما